مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (41) العدد (1)2019
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (41) No. (1) 2019

أسس الماديَّة الجدليَّة وتطبيقاتها

الدكتور غسان علاء الدين*
قيس محمود محلا**

(تاريخ الإيداع 21 / 11 / 2018. قبل للنشر في 10 / 1 / 2019)

□ ملخّص □

يسعى هذا البحث لإبراز أهمِّ الأسس التي استندت إليها الفلسفة الماديَّة الماركسيَّة المتمثِّلة بالفلسفة الألمانيَّة وخاصةً فلسفة هيغل، بالإضافة إلى النظريات الاشتراكيَّة الفرنسيَّة، وما قدَّمه منظِّرو الفكر الاقتصادي السياسي في انكلترا في القرن التاسع عشر، تلك الأسس التي مكَّنت ماركس من صياغة المنهج المادي الجدلي بوصفه أداةً فعَّالةً لفهم التاريخ وتفسيره على نحوٍ علميٍّ يظهر أهمية العمل الإنساني والإنتاج الاجتماعي كبنية تحتيَّة تعكس تجليات الوجود الإنساني بما فيه من مؤسساتٍ اجتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ وثقافيَّةٍ، وبذلك تختلف الفلسفة الماديَّة الماركسيَّة عن الفلسفات الماديَّة والمثاليَّة السابقة عليها من حيث المنهج والمذهب، فقد غدا المنهج أداةً أيديولوجيَّةً لتحرير الطبقات الفقيرة من الظلم والقهر الاجتماعي التي كانت تمارسه الطبقات المسيطرة والمالكة لوسائل الإنتاج عبر التاريخ، وهذا ما سيسعى البحث لتوضيحه من خلال المزاوجة بين الأصول النظريَّة للماركسيَّة وتطبيقاتها على أرض الواقع، مع إبراز عوامل النجاح والإخفاق في التطبيق.

الكلمات المفتاحيَّة: المذهب المادي، أيديولوجية، الطبقات، البروليتاريا، الجدل، الاشتراكية.

* أستاذ مساعد – قسم الفلسفة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة – سوريا.
** طالب دراسات عليا (دكتوراه)– قسم الفلسفة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة –جامعة تشرين – اللاذقيّة –سوريا.
kaismhmod@gmail.com

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (41) العدد (1)2019
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (41) No. (1) 2019

The Foundations of Dialectical Material and its Applications

Dr. Ghssan Alaa Aldeen*
Kais Mahmod Mhalla**

(Received 21 / 11 / 2018. Accepted 10 / 1 / 2019)

□ ABSTRACT □

This research aims to demonstrate the most important foundations to the Marxist material philosophy as German philosophy, especially the philosophy of Hegel, the theories of French socialism, and the theories of English economic and political in the 19th century, Marx enabled by that foundations to forming the dialectical material method as an effective tool for understanding and interpreting history scientifically by showing the importance of human work and social production as an infrastructure that reflects manifestations of the human existence, social, political, and cultural institutions. The Marxist material philosophy differs from the materialism and idealism philosophies which before it of method and doctrine, The method became an ideological tool for liberating the poor from the social oppression which practiced by the ruling classes and the owners of the tool of production throughout history, and the research will try to clarify it by linking the theoretical assets of Marxism with their actual applications, in addition to demonstration the reasons of success and failure in the application.

Key words: Materialism, Ideology, Classes, Proletariat, Dialectic, Socialism.

***Associate Professor, Department of Philosophy, Faculty of Art and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**
****Postgraduate Student(Phd), Department of Philosophy, Faculty of Art and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**
kaismhmod@gmail.com

مقدمة:

حاول ماركس (1818– 1883م) من خلال الماديَّة الجدليَّة، والماديَّة التاريخيَّة، وعلم الاقتصاد السياسي، أن يتسلَّح بمنهجٍ علميٍّ يستطيع من خلاله ليس تفسير العالم فحسب، وإنما تغييره أيضاً، إذ إنَّ القدرة على تفسير وفهم الطبيعة والمجتمع والإنسان على نحوٍ علميٍّ مقدِّمة ضروريَّة لابد أن تفضي إلى تغيير العالم ككل، على أن يرتبط هذا الفهم بالعمل الإنساني الهادف إلى السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لصالحه، بحيث يغدو الإنسان صانعاً للطبيعة ومصنوعاً لها في الوقت نفسه في سياق جدليٍّ ماديٍّ لا يتوانى عن التطور والتقدُّم، إلا أنَّ عمل الإنسان مشروط بوجوده الاجتماعي والتاريخي، فهو فاعل لوجوده التاريخي والاجتماعي ومفعول له في آنٍ معاً؛ وهذه جدليَّة ماديَّة تاريخيَّة تبرز فيها وسائل الإنتاج وأدواته كعاملٍ ماديٍّ أساسيٍّ في تحديد شكل الوجود الإنساني والاجتماعي عبر تطوُّره التاريخي. بالإضافة إلى ذلك قدَّم ماركس نظريته الاقتصادية التي بيَّن فيها أنَّ مردود العمل الإنساني، وما ينتج عنه من فائض قيمة، يلعب دوراً أساسياً في استغلال طبقة مالكة لوسائل الإنتاج ورأس المال لطبقة فقيرة مسحوقة لا تمتلك إلا عملها المأجور الذي يُباع كسلعة في سوق العمل. من هنا يمكن فهم الفلسفة الماركسيَّة بوصفها منهجاً لفهم التاريخ والعمل الإنساني من جهة، وكإيديولوجيا تسلَّحت بها الطبقة العمَّاليَّة للدفاع عن حقوقها على أرض الواقع من جهة أخرى، إلا أنَّ أساليب تطبيق الماركسيَّة اختلفت بين بلدٍ وآخر وبين حينٍ وآخر، إذ شُوِّهت وتعرَّضت إلى أزمات خطيرة لم تنجح الشعوب المدافعة عنها في انتشالها منها، وخاصَّةً في الاتحاد السوفيتي الذي سنقدِّمه كأنموذج لأعظم وأكبر دولة طبَّقت الماركسيَّة في القرن المنصرم. ولكن علينا قبل ذلك أن نقدِّم عرضاً مكثفاً للظروف التاريخيَّة والعلميَّة والفكريَّة التي أثمرت، في المحصِّلة، عن نشأة الفلسفة الماركسيَّة.

أهميّة البحث وأهدافه:

أهميّة البحث:

إنَّ أهميّة البحث تظهر من خلال تركيزه على الأسس التاريخيَّة والعلميَّة والفكريَّة، التي استند إليها ماركس في صياغة منهجه الجدلي المادي والتاريخي، ومن ثمَّ إبراز هذا المنهج بوصفه أداةً فعالةً بيد الطبقات المقهورة والمستضعفة في العالم لتغيير واقعها، والخلاص من الظلم الاقتصادي والاجتماعي الذي ألحقته بها الطبقات المُستغِلَّة المالكة لوسائل الإنتاج وأدواته، وذلك على الرغم من التعثُّر في تطبيق الماركسيَّة بشكل كامل على أرض الواقع، والذي يمكن إرجاعه إما إلى خللٍ في النظريَّة الماركسيَّة ذاتها من حيث أنها أرادت أن تجعل عجلة التاريخ تتوقَّف في محطة المجتمع الشيوعي بما يتعارض مع حركيَّة الديالكتيك الذي يُعدُّ أهمَّ الأسس النظريَّة التي انطلقت منها، وإما إلى خللٍ في التطبيق ذاته انطلاقاً من أطماع سلطويَّة.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحليل الأسس الفكريَّة والثقافيَّة لفلسفة ماركس، وكيف أفضت، في المحصِّلة، إلى تكوين المنهج المادي الجدلي الذي استطاع من خلاله فهم التاريخ والإنسان والمجتمع، إلا أنَّ ذلك الفهم ما هو إلا مقدِّمة ضروريَّة لتغيير العالم وإعادة بناء الإنسان في كليته الإنسانيَّة بعد تصالحه مع ذاته ومع الآخر ومع الطبيعة، وهذا ماله من سبيل إلى التحقُّق إلا في المجتمع الشيوعي بعد تحطيم البروليتاريا لبقايا النظام البرجوازي كما يزعم ماركس. من هنا

اختلف منظِّرو الماركسيَّة في كيفيَّة تطبيقها بين متشدِّد للنص الماركسي وآخر مؤوِّل قد يكون معتدلاً أو متساهلاً، وهذا ما سيظهره البحث من خلال تطبيق النظريَّة الماركسيَّة على أرض الواقع.

منهج البحث:

سنستخدم المنهج التحليليّ المقارن لمقارنة فلسفة ماركس بغيرها من الفلسفات والعلوم الأخرى التي اتخذتها قاعدةً لانطلاقها، لنكمل ذلك بمنهجٍ تركيبيٍّ يعطي صورة متكاملة تبرز الوحدة العضويَّة التي أنتجتها الفلسفة الماركسيَّة بجمعها بين المنهج الجدلي والماديَّة العلميَّة التي ترتكز إلى منجزات علم الطبيعة وعلم الاقتصاد السياسي وعلم التاريخ.

أسس الماديَّة الجدليَّة:

1.الجدل الهيغلي:

في نهاية القرن الثامن عشر في ألمانيا لم تكن أخذت الرأسماليَّة الصاعدة دورها الطبقي بعد، فقد كان النظام الإقطاعي مسيطراً على ألمانيا المجزَّأة والمقسَّمة إلى ولايات متباعدة ومتناحرة، وفي ظل تلك الظروف نشأت فلسفة ألمانيَّة تسعى للتقويم والبناء من أجل استعادة مجد ألمانيا على ألسنة فلاسفتها ومفكريها أمثال فيخته (1762–1814م)، وشيلينغ (1775–1854م)، وفيورباخ (1804–1872م)، وهيغل(1770–1831م)، وغيرهم، فقد لاحظ هيغل أنَّ الطريق المؤديَّة إلى توحيد بلاده يجب أن تبدأ من المنطق والميتافيزيقا وفلسفة التاريخ.

إن النفاذ إلى لبِّ الفلسفة الماركسيَّة* لا يمكن تحقيقه إلاّ إذا استعرضنا أسس الجدل عند هيغل الذي رأى أنَّ قانون التناقض في المنطق الأرسطي جامد وقاصر عن كشف ديناميكية وحركة التاريخ، بينما التناقض لديه يستطيع أن يعبِّر عن حركة الوجود بدقَّة، وهذا التناقض في حركةٍ دائمةٍ متجدِّدةٍ ينتقل فيها الفكر من القضيَّة إلى نقيضها إلى المركَّب منهما وهكذا دواليك في حركة جدليَّة تتيح لنا الوصول إلى أفكارٍ جديدةٍ، وتحرِّرنا من الجمود عند صيغٍ تقيِّد حريَّة العقل، كما تتيح للوعي التأليف بين الذاتيّ والموضوعيّ كتجسيدٍ للفكر المطلق، وهذا يتحقَّق عندما تتعرَّف الفكرة المطلقة على ذاتها من خلال الوعي الإنساني عبر مراحل تطوُّره التاريخي انطلاقاً من الفنّ إلى الدين إلى الفلسفة، فنقطة البدء عند هيغل هي الفكر، والوجود بما فيه من تناقضات يتبع الفكر المثالي الجدلي، ومن ثمَّ يحقِّق الوجود وحدته.

أمَّا في الجانب السياسيّ من فلسفة هيغل فإنَّنا نجد "**أنَّ سياسة هيغل ... ذات وجهين، فهي من جهة تستهدف الصلح مع الحقيقة الواقعة الموجودة التي تريد سياسته أن تفهمها بتعليلها تعليلاً عقلانياً، وبهذا المعنى يمكن لكلِّ محافظٍ أن ينتمي إليها. غير أنَّ الحركة الجدليَّة التي تتحكَّم بالفكر الهيغليّ تعارض، من جهة أخرى، مثل هذا التثبيت، فهي تبرِّر فكرة تقدُّم يتكّيف بمنازعات قد تكون نزاعات بين طبقات اجتماعيَّة كما بين دول**"[1]، ومن هنا انقسم أنصار هيغل إلى فريقين متعارضين: أنصار اليمين وأنصار اليسار، فكانت فلسفة اليمين تنافي الثورة وتحضُّ على إطاعة الحاكم. أمَّا أنصار اليسار، ومنهم كارل ماركس، فيرون أنَّ جوهر فلسفة هيغل يتمثَّل في تأييد التطوُّر العالميّ والتقدُّم

*** الماركسية اصطلاحاً: هي تلك النظريَّة الفلسفيَّة في الإشتراكيَّة العلميَّة التي وضع أصولها ودعائمها كلٌّ من كارل ماركس(1818–1883م). وفريدريك إنجلز (1820–1895م)، وطوَّرها فيما بعد فلاديمير لينين(1870– 11924م) وقد ظهرت على أرضيَّة المعالجة النقديَّة للفلسفة الكلاسيكيَّة الألمانيَّة والاقتصاد السياسيّ الانكليزي والاشتراكية الطوباويَّة الفرنسيَّة. أنظر، المعجم الفلسفي المُختصر، ترجمة توفيق سلّوم، دار التقدُّم، موسكو، 1986م، ص420–421.**

(1) سيرّو، رينيه: هيغل والهيغليَّة، ترجمة نهاد رضا، دار الأنوار، بيروت، د. ت، ص79.

الكونيّ الذي يمكن أن ترتكز عليه الإيدولوجيا الثوريَّة التي تمثِّل روح السياسة الماركسيَّة. وهذا ما كان له أن يتحقَّق إلاّ بالانقلاب الذي قام به ماركس على الفلسفة الهيغليَّة، فإذا كان هيغل يبدأ بالفكر فإن ماركس يبدأ بالمادَّة، يقول ماركس: "**إنَّ منهجيتيّ الديالكتيكيَّة لا تختلف من حيث الأساس عن المنهجيَّة الهيغليَّة فحسب، بل هي نقيضها المباشر، فهيغل يعتبر أنَّ عملية التفكير، التي جعل منها ذاتاً قائماً بنفسه أطلق عليه اسم الفكرة هي خالق العالم الواقعيّ. أمَّا عندي فالأمر معكوس، إذ ليس المثاليّ سوى انعكاس وترجمة للعالم الماديّ في الدماغ البشريّ**"[2].

وعليه، لا بدَّ من دراسة هيغل كما فهمه ماركس، وهذا يحتاج إلى تفصيل يبدو صعباً في عجالة صغيرة، لكنَّه يتوضَّح من نقد ماركس لطبيعة الجدل ووظيفته عند هيغل، فالجدل عند هذا الأخير طريقة يفرضها العقل على الأشياء، وهو بذلك فيلسوف مثاليٌّ، بينما عند ماركس هو انعكاس لعلاقة الأشياء الماديَّة فيما بينها في الفكر، وهو بذلك يكون فيلسوفاً ماديَّاً. ولهذا يُوصَف جدل هيغل بأنَّه مغلق باعتباره محكوماً بقدرات وإمكانات العقل، وتبدو فيه مقولات الجدل وقوانينه مغلقة ومكتملة، وعلى عكس ذلك يُوصَف جدل ماركس بالمفتوح لأنَّه يتوجَّه نحو الواقع المليء بالإمكانات اللامحدودة، لذلك فالمقولات والقوانين المعروفة عنده هي حصيلة مؤقتة لمعرفتنا بالعلاقات بين الأشياء والناس.

2.الفكر السياسي الفرنسي:

لقد بدأت إرهاصات النظريَّات الاشتراكيَّة الفرنسيَّة* منذ فرانسوا بابيوف (1760– 1797م) الذي دعا إلى المساواة الحقوقيَّة والاجتماعيَّة، وعرَّى زيف الديمقراطيَّة التي كانت تتستَّر به الإيديولوجيَّة البرجوازيَّة، مع أنَّه لم يعوِّل على غيرها في إقامة النظام السياسيَّ للدولة. أمَّا المفكِّرون الفرنسيون الآخرون أمثال سان سيمون (1760– 1825م) وشارل فورييه،(1772– 1837م) ولويس بلانكي (1805– 1881م) فقد كانت دعوتهم واضحة لإقامة النظام الاشتراكي على أسس سلميَّة بعيدة عن الانقلابات الثوريَّة، فأنكروا النضال الطبقيّ وأهملوا الصلة بالجماهير، وبالمجمل فإنَّ المفكِّرين الفرنسيِّين في مجال السياسة قد استندوا إلى الفلسفة الماديَّة الفرنسيَّة ذات الطابع الميكانيكيّ والميتافيزيقيّ في القرن الثامن عشر[3]، مما جعلهم بعيدين عن الفهم الماديّ للحياة الاجتماعيَّة فأغفلوا دور العمَّال كقوَّة محرِّكة للتاريخ، فالفيلسوف الماديّ الفرنسيّ غولباخ (1723– 1789م) يقول: "**إنَّ من يستطيع تقرير المصير من على العرش هم الملوك القدِّيسون العادلون الشجعان الطيِّبون الذين يحاولون تخليص الإنسانيَّة من شرورها، كما تشير الحكمة، بعد أن يعرفوا أسبابها الحقيقيَّة**"[4].

إنَّ هذا الطرح الطوباوي لفكرة الاشتراكيَّة والبعيد عن مجرى التحوُّلات الواقعيَّة ليس في فرنسا فحسب، بل وفي ألمانيا وإنكلترا عبَّر عنه إنجلز قائلاً: "**إنَّ الاشتراكيَّة هي بالنسبة إليهم جميعاً، التعبير عن الحقيقة والعقل والعدالة المطلقة، ويكفي أن نكتشفها حتّى تجتاح العالم بفضل قوَّتها الذاتيَّة**"[5]. ومع ذلك فإن الموضوعات التي طرحها الاشتراكيُّون الفرنسيُّون شكَّلت منطلقاً نظريَّاً هامَّاً للماركسيّة، كالقول بالتقدُّم التاريخي، وبتحوُّل العمل في المجتمع الشيوعيّ إلى حاجة أوليَّة لدى الإنسان، بالإضافة إلى التأكيد على أهميَّة تخطيط الاقتصاد، وإزالة الفوارق بين العمل الذهنيّ والعمل

---

(2) ماركس، كارل: رأس المال، المجلد الأول، ترجمة فالح عبد الجبَّار، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م، ص38.

*** هي نظريات طوباويَّة أجمع معظم منظِّروها، أمثال بابيوف، وسيمون، وفورييه، وبلانكي، على نقد النظام الرأسماليّ، واقتراح إقامة نظام اجتماعي جديد عبر الترويج السلمي لفكرة الاشتراكيَّة في ظلّ إنجازات الرأسماليَّة. أنظر، المعجم الفلسفي المُختصر، ص39.**

(3) جماعة من الأساتذة السوفييت: الماديَّة الديالكتيكيَّة، ترجمة فؤاد مرعي، دار الجماهير، دمشق، ط4، 1978م، ص43 بتصرُّف.

(4) غولباخ. ب: نظام الطبيعة، 1940، ص 430. نقلاً عن: كيللي. ف، كوفالزون. م: الماديَّة التاريخيَّة، ترجمة أحمد داود، دار الجماهير، دمشق، 1978م، ص363.

(5) إنجلز، فريدريك: الاشتراكيَّة الطوباويَّة والعلم، دون مترجم، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م، ص103.

الجسديّ[6]، وغير ذلك من الأمور التي كانت حافزاً للماركسيَّة في اكتشاف قوانين التطوُّر التاريخيَّة الموضوعيَّة التي تُبرز أهميَّة البروليتاريا كقوّة حتميَّة جبَّارة في وجه الرأسماليَّة.

3.إرهاصات نظرية القيمة والعمل:

إنَّ الظروف الاقتصاديَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة التي كانت تعيشها إنكلترا أهَّلتها لتكون أعظم بلد رأسماليّ في أوروبة في منتصف القرن الثامن عشر، وفي هذا الظرف التاريخي كان لابدَّ من وجود فلاسفة ومفكرين للتعبير عن روح ذلك العصر، ولذلك "**لا يجوز أن نقول إنَّه قبل ماركس وإنجلز لم تكن هناك محاولات لمعرفة جوهر وقوانين الرأسماليَّة. ويعود فضل كبير في هذا المجال إلى أبرز ممثلي علم الاقتصاد السياسيّ الإنكليزيّ سميث وريكاردو اللذين وضعا بداية نظريَّة القيمة والعمل. إنَّ نظريتهما الاقتصاديَّة، كالاشتراكيَّة الطوباويَّة، كانت إحدى المصادر النظريَّة للماركسيَّة**"[7]، فقد أكَّد آدم سميث (1723– 1790م) على قيمة العمل وحريَّة التجارة وأثرها في تراكم الثروات، إذ "**أوضح أن العمل هو المصدر النهائي للثروة، وثروة البلد تتوقَّف على إنتاجية العمل و حجم قوة العمل المنتج.**"[8]، وقد تنبَّأ توماس مالتوس (1766– 1834م) صاحب نظريَّة السكَّان بأنَّ العالم مُهدَّد بالمجاعة نتيجة التضخُّم السكَّاني الذي لا يوازيه تضخُّم الثروات الطبيعيَّة، إذ يعتبر أنَّ عدد السكَّان يزيد وفق متوالية هندسيَّة، بينما يزيد الغذاء وفق متوالية حسابيَّة، ولكنَّه أقرَّ التوازن بين عدد السكَّان والغذاء بناءً على أسباب طبيعيَّة وأخلاقيَّة، كالكوارث الطبيعيَّة، وعفة النفس ... إلخ. وكان لهذه النظريَّة صدًى واسعاً في علم الاقتصاد السياسيّ على المستوى المحليّ والعالميّ، وخاصَّة عند ريكاردو (1772– 1823م) الذي أكَّد على أنَّ "**العمل سلعة تتحدَّد قيمتها بساعات العمل اللازمة لإنتاجها، أي بالحدِّ الأدنى لمستوى المعيشة الذي يكفل استمرار عدد العمال دون زيادة أو نقصان (مستوى الكفاف)، وعلى ذلك فالأجور تتحدَّد بهذا الحد الأدنى لمستوى المعيشة، وإذا كانت الأجور الجارية تختلف أحياناً عن هذا الأجر الطبيعي، فإنَّ هناك اتجاهاً عاماً للأجور للاستقرار عند هذا المستوى**"[9]. وبهذا يمكن القول بأنَّ ريكاردو، وعلى الرغم من تأثُّره الضمني بمالتوس، فقد كان أكثر واقعيَّة منه لاعتماده على نظريَّة قيمة العمل، وقانون العرض والطلب في تفسيره لحالة التوازن بين الغذاء والسكَّان، إذ رأى أنَّ زيادة الأجور عن الحدِّ الأدنى ستقود إلى زيادة مواليد الطبقة العاملة، وهذا ما سيؤدي بدوره إلى البطالة والفقر والموت وانخفاض عدد العمَّال، ليعود ارتفاع الطلب عليهم من جديد فترتفع أجورهم وهكذا. كما أنَّ ريكاردو تجاوز آدم سميث في تعميمه لنظريَّة قيمة العمل على جميع الأنظمة الاجتماعيَّة.

خلاصة القول، شكَّلت العوامل الثلاثة السابقة مصادر ثراء انطلق منها ماركس في التأسيس للفلسفة الماركسيَّة وإيديولوجيَّتها، التي تقوم على نظريّتين هامّتين أولاهما الماديَّة الجدليَّة والتاريخيَّة، وثانيهما نظريَّة فائض القيمة.

المنهج المادي الجدلي:

لقد اتخذ ماركس المنهج الديالكتيكيّ الهيغليّ منهجاً له بعد أن صحَّح مساره، فجعل الفكر تابعاً للوجود الماديّ وليس العكس، ومن ثمَّ فإنَّ تفسير الواقع يتمُّ طبقاً للمنهج الماديّ الجدليّ، ذلك لأن جميع الأشياء بدت له منخرطة في مسار تطوُّر يتحقَّق تباعاً بفضل قوى متعارضة متنابذة، جعلت تاريخ البشرية عبارة عن تاريخ الصراع بين الطبقات، فالجدل

(6) المعجم الفلسفي المُختصر، ص40. بتصرُّف.

(7) جماعة من الأساتذة السوفييت: الماديَّة الديالكتيكيَّة، ص49.

(8) البيلاوي، حازم: دليل الرجل العادي إلى تاريخ الفكر الاقتصادي، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1995م، ص59.

(9) المرجع السابق، ص65.

الماركسيّ ينظر إلى الطبيعة على أنها كلٌّ موحَّد، متناسق، ترتبط فيه الظواهر ارتباطاً عضويَّاً فيما بينها بحيث يعتمد بعضها على البعض الآخر، "**في المنهج – المذهب الديالكتيكيّ: الكون (العالم المادي، عالم الأشياء: الطبيعة، المجتمع، وأيضاً الفكر) مترابط؛ ليس تراكماً لظواهر عرضيَّة. وهو في حركة، تغيُّر، صيرورة، هذه الحركة ليست حركة تكراريَّة، بل هي تطوُّر – نمو– تقدُّم ... التغيُّر ليس كميَّاً وحسب، بل إنَّ تراكم التغيُّرات الكميَّة يفضي إلى تغيرات في الكيف ... إذن يولد جديد ويموت قديم**"[10]، فالقانون الرئيسي الجوهري هنا هو قانون الصراع، فليس ثمّة شيء يمكن أن يتصف به الموجود إلاّ إذا وقف في وجهه نقيضه الذي سيلتحم معه في صراع ويقضي عليه، وعلى ذلك فكل موجود يعدُّ ذاته للهلاك بما في ذلك الرأسماليَّة. ومن هنا فقد "**نشأت الفلسفة الماركسيَّة في ارتباط وثيق بعمليَّة تكوُّن الماركسيَّة كأيديولوجيَّة للبروليتاريا**"[11].

تنطوي الماديّة الجدليَّة على الماديَّة التاريخيَّة لأن المادَّة هي مبدأ الكلّ ومن هنا فإن تطوُّر المادَّة لا تطوُّر الفكر هو الذي يتحكَّم في العالم. ويبحث ماركس عن الظاهرة الماديَّة التي تتطوَّر دائماً لتكون علَّة حقيقيَّة لتطوُّر الإنسان عبر التاريخ، فيكتشف أنَّها وسائل الإنتاج، فهي أساس تطوُّر المجتمعات وتطوُّر التاريخ الإنساني، وبعبارة أخرى هي العوامل الاقتصاديَّة التي يمكن أن نفسِّر على أساسها تطور المجتمع الإنساني، "**فالبشر إذ يطوِّرون إنتاجهم الماديّ وعلاقاتهم الماديَّة هم الذين يحوِّلون فكرهم ومنتجات فكرهم على السواء مع هذا الواقع الذي هو خاصَّتهم، فليس الوعي هو الذي يعيِّن الحياة، بل الحياة هي التي تعيِّن الوعي**"[12]، وعلى ذلك فليس الضمير الإنساني هو الذي يحدِّد طريقة وجود الإنسان وإنما وجوده الاجتماعي هو الذي يحدِّد ضميره.

يرى ماركس أن الماديَّة والمثاليَّة ليستا إلاَّ تفسيرات للعالم، أمَّا اليوم فالتفسير وحده لم يعد كافياً، فنحن بحاجة إلى تغيير العالم وتبديله، إذ "**لم يفعل الفلاسفة حتى اليوم سوى تفسير العالم بطرق مختلفة، لكنَّ الأمر الهام هو تحويله**"[13]، وذلك لا يعني الاستغناء عن التفسيرات فننكر بذلك الفلسفتين الماديَّة والمثاليَّة على السواء بل وضع الفلسفات والتفسيرات على محكِّ العمل.

إنَّ الأفكار السائدة هي أفكار الطبقة الحاكمة التي تبذل جهدها لخلق أيديولوجية تعزِّز سيطرتها، وغالباً ما تكون أيديولوجيا دينيَّة أخلاقيَّة، يقول ماركس: "**إنَّ الطبقة التي تتصرَّف بوسائط الإنتاج المادي تملك في الوقت ذاته الإشراف على وسائط الإنتاج الفكري، بحيث أن أفكار أولئك الذين يفتقرون إلى وسائط الإنتاج الذهني تخضع من جرَّاء ذلك لهذه الطبقة السائدة**"[14]، ومن هنا تأتي أهمية الماديَّة الديالكتيكيَّة والتاريخيَّة التي صاغها كلٌّ من ماركس وانجلز كسلاح أيديولوجيّ بيد البروليتاريا، فهي الطبقة العمَّاليَّة التي فرضها التطوُّر التاريخيّ الماديّ القائم على صراع الطبقات، والديالكتيك هو الذي حتَّم ظهور البروليتاريا كتركيب ضروريّ من الصراع الذي كان قائماً بين الإقطاع والبرجوازية، والذي سيؤدي إلى المجتمع الاشتراكيّ الذي تزول من خلاله الطبقات بفضل النضال الثوريّ للبروليتاريا أولاً، ووعيها لشروط وجودها التاريخيَّة ثانياً، لذلك "**أعطت الفلسفة الماركسيَّة للعمَّال التقدُّميين إمكانية تحرير أنفسهم من اضطهاد اللاهوت الروحيّ ومن الإيمان الساذج في النوايا الطيِّبة للحكَّام وأصحاب العالم الرأسماليّ، كما جعلتهم**

---

(10) لينين: دفاتر عن الديالكتيك، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ط1، 1971م، ص36.

(11) جماعة من الأساتذة السوفييت: الماديَّة الديالكتيكيَّة، ص49.

(12) ماركس، كارل/ انجلز، فريدريك: الإيديولوجية الألمانية، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق، ط1، 1976م، ص31.

(13) المصدر السابق، ص653.

(14) المصدر السابق، ص56.

يدركون أنَّ الطبقة العاملة لا تستطيع أن تتحرَّر من الاستثمار إلاَّ بنضالها الفعَّال الخاصّ"[15].

إنَّ انحراف الإنسان عن الغاية السليمة، مرجعه إلى العقيدة الدينيَّة والأخلاقيَّة التي تفرضها الطبقة البرجوازيَّة الحاكمة كأيديولوجية لتكريس سيطرتها على الطبقات العمَّاليَّة الفقيرة والمسحوقة، التي تغترب عن واقعها الفعلي وعن نتاج عملها لتتعلَّق بعالم غيبيٍّ آخر تنشد فيه الخلاص والطمأنينة، وهذا ما حذَّر منه لينين بقوله: "**ينبغي على ديكتاتوريّة البروليتاريا أن تحطِّم إلى النهاية الصلات بين الطبقات المستثمِرة، الملاَّكين العقاريين والرأسماليين، وتنظيم الدعاية الدينيَّة التي ترمي إلى إبقاء الجماهير في الجهل. ينبغي على ديكتاتوريّة البروليتاريا، دون تراجع، أن تحقِّق تحرُّر الجماهير الكادحة تحرُّراً حقيقيّاً من الأوهام الدينيَّة وذلك ببذل الجهد في الدعاية ورفع مستوى وعي الجماهير**"[16].

إنَّ الحريَّة التي يدعو إليها النظام الرجوازيّ هي حريَّة طبقة دون أخرى، وهي حريَّتها بالذات، وهي حرِّيَّة كلام ومواعظ ونصائح تربويَّة وإصلاحات اجتماعيَّة لا طائل من ورائها إلاَّ الحفاظ على مصالحها الطبقيَّة، وهذا ما أشار إليه لينين بالقول: "**إنَّ الديمقراطيَّة البرجوازيَّة، إذ تعلن بأبّهة المساواة بين جميع المواطنين، تخفي في الحقيقة برياء سيطرة المستثمِرين الرأسماليين؛ فهي تخدع الجماهير بالفكرة القائلة إن المساواة ممكنة في الحقيقة بين المستثمِرين والمستثمَرين**"[17]، وأمَّا الحريَّة المُشرَّبة بالعدالة والمساواة الفعليَّة فلا سبيل إليها إلاّ في ظلِّ الاشتراكيَّة الكفيلة بالقضاء على هذا الانحراف، ولهذا يقول ماركس: "**إنَّ التحرير فعل تاريخي وليس فعلاً ذهنيّاً، وهو يتحقَّق بفضل شروط تاريخيَّة**"[18].

سادساً: نظرية فائض القيمة:

إن نظريَّة فائض القيمة هي النقطة المركزيَّة في فلسفة ماركس الاقتصاديَّة، فالجهد البشري هو القوَّة الوحيدة القادرة على خلق القيمة، فليس لشيء ما قيمة إلاَّ إذا بُذِل فيه مجهود إنساني، فقيمة سلعة ما تقاس بمقدار العمل الذي يتطلَّبه إنتاجها، و "**قيمة قوّة العمل تتحدَّد، شأن حال أيّ سلعة أخرى، بوقت العمل الضروريّ لإنتاج وإعادة إنتاج هذه المادّة الخاصَّة. ولا تمثِّل هذه السلعة، من حيث هي قيمة، أكثر من كميَّة محدَّدة من العمل الاجتماعيّ الوسطيّ المتشيء فيها**"[19]، ومادام العمل هو الذي ينتج الثروة فللعمَّال الحقُّ في أن يستولوا على كلِّ ما ينتجه العمل، لكن المُلاحظ أنَّ العامل يأخذ أقلَّ مما يستحقّ في خلق قيم الأشياء، لأنَّ الرأسمالي يشتري من العامل قوَّة عمله بأدنى من قيمتها، ثمَّ يستخدم الرأسماليّ قوَّة العمل التي اشتراها ليحصل على أكبر قيمة باستغلالها أسوأ استغلال، ومن الفرق بين القيمتين يحصل الرأسماليّ على ربح وفير يسمِّيه ماركس (فائض القيمة)، فالرأسماليّ يحرم العامل من الجزء الأكبر من قيمة عمله ليحوِّلها إلى ربح متكدِّس لتكوين رأس المال، أيّ أنَّ العامل لا يحصل من قوَّة عمله إلاَّ على ما يكفل استمرار الحياة له ولأسرته في الحدود الدنيا، ومن هنا وجد لينين أنَّ "**قوَّة عمل الإنسان تغدو بضاعة، فالأجير يبيع قوَّة عمله لمالك الأرض ولصاحب المصنع وأدوات الإنتاج، والعامل يستخدم قسماً من يوم العمل لتغطية نفقات إعالته وإعالة أسرته (الأجرة)؛ ويستخدم القسم الآخر للشغل مجَّاناً، خالقاً للرأسمالي القيمة الزائدة، التي هي مصدر ربح،**

---

(15) جماعة من الأساتذة السوفييت: الماديَّة الديالكتيكيَّة، ص30.

(16) لينين: ماهي سلطة السوفييت؟ ترجمة الياس شاهين، دار التقدُّم، موسكو، 1973م، ص25.

(17) المرجع السابق، ص21.

(18) ماركس، كارل/ انجلز، فريدريك: الإيديولوجية الألمانية، ص32-33.

(19) ماركس، كارل: رأس المال، المجلد الأول، ص222.

مصدر إثراء للطبقة الرأسماليَّة"[20]، ويشير ماركس في مخطوطاته إلى أنَّ الحدَّ الأدنى من الأجور لا يحصل عليه العامل بطيب خاطرٍ من الرأسماليّ؛ لأنَّ هذا الأخير لو كان بمقدوره حرمان العامل من هذا الأجر لفعل، ولكن حرصاً منه على استمرار ربحه المقرون باستمرار حياة العمَّال، فإنه يبقي على هذا الحدِّ من الأجور، إذ إنَّ "**معدَّل الأجر الأدنى والضروريّ هو فحسب ذلك المعدَّل الذي يوفِّر العيش للعامل فترة عمله وما يلزمه لكي يعول عائلة ولكي لا يندثر جنس العمَّال**"[21].

وقد رتَّب ماركس على نظريته في فائض القيمة نتائج خطيرة، فقد شبَّه حالة العمَّال اليوم بحالة العبيد ورقيق الأرض، فالعمَّال اليوم يؤدُّون عملهم بدون مقابل تقريباً، ولا يملكون إلاَّ القدرة على العمل، وعليهم أن يبيعوها للملاَّك بثمن يكفي، بكل صعوبة، للحفاظ على حياتهم وحياة أُسرهم. ومادام العامل لا يملك إلاَّ عمله فليس لديه قوَّة الامتناع، فهو يعرضه بأبخس الأثمان فيخضع لقانون العرض والطلب الذي "**يحكم بالضرورة إنتاج الناس كما يحكم أي سلعة أخرى، فإذا زاد العرض كثيراً عن الطلب انحدر قسم من العمَّال إلى التسوُّل أو التضوُّر جوعاً، وهكذا فإنَّ وجود العامل يصبح في نفس ظرف وجود كلِّ سلعة أخرى، لقد أصبح العامل سلعة، ويكون من حسن حظِّه أن يجد مشترياً**"[22]. ومع ذلك كلِّه فالعامل مُجبَرٌ على عرض قوَّة عمله لمن يشتريها، ومن المعلوم بأنه كلَّما زاد العرض قلَّ الطلب والعكس صحيح، وفي كلِّ الأحوال الرابح الوحيد هو الرأسماليّ، الذي سيقوده الطمع إلى منافسة الضعاف من أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة، فيقضي بذلك على ما يسمى طبقة وسطى في المجتمع، ومن ثمَّ تزداد حدَّة التناقضات بين الطبقة الغنيَّة المالكة لرأس المال ووسائل الإنتاج وقوَّة العمل من جهة، وبين الجمِّ الغفير من العمَّال المعوزين من جهة أخرى، وبذلك تخلق الرأسماليَّة عوامل فنائها، لذلك يقول لينين: "**إنَّ النظام الرأسماليّ يزيد من تبعيَّة العمَّال إزاء الرأسمال ويخلق في الوقت نفسه قدرة العمل الموحَّد الكبيرة ... لقد انتصرت الرأسماليَّة في العالم بأسره، ولكنَّ هذا الانتصار ليس سوى المقدِّمة لانتصار العمل على رأس المال**" [23].

لقد أدرك ماركس ضرورة إلغاء النظام الرأسماليّ والملكيَّة الخاصَّة، وتنفيذ برنامج اشتراكي تختفي في ظلِّه طبقتا الرأسماليَّة والعمَّال الأجراء، ويصبح الجميع منتجين متعاونين. وبإيجاز شديد نستطيع أن نقول: إن الاشتراكيَّة عند ماركس هي واقعة حتميَّة تجري بمقتضى قانون علميّ مبنيّ على الجدل الذي يحقِّقه قانون النقائض عبر إفناء الفقر المدقع والبؤس الشديد لخصمه الرأسمال والوصول إلى الاشتراكيَّة، لكنَّ هذه الاشتراكيَّة تحتاج في بداية الأمر إلى دولة لتنظِّم مراحل الوصول إليها، وعندما تتحقَّق هذه الاشتراكيَّة عالميَّاً تزول الدولة التي لم يعد هنالك مبرِّر لوجودها ونصل إلى مجتمع الغدّ وننتهي إلى الشيوعيَّة، "**ويتحقَّق هذا التلف عند انتهاء تطوُّر ضخم في الاقتصاد، ويتمُّ على مرحلتين رئيسيتين: المرحلة الدنيا للمجتمع الشيوعي هي التي يجب على الدولة البروليتاريَّة أن تراقب فيها بدقّة عمل كلِّ فرد واستهلاكه لأنَّ الإنتاج يكون لايزال غير كافٍ. بعد ذلك، عندما يتأكَّد تطوُّر عجيب في القوى الإنتاجيَّة، تُفتح المرحلة العليا للمجتمع الشيوعيّ بالفعل، إذ يأتي أخيراً زمن الحريَّة حيث لا يعود للدولة مبرر وجود**"[24]، ولما لهذا القانون من أهميَّة في الفكر الماركسيّ أُطلِق على الماركسيَّة اسم (الاشتراكيَّة العلميَّة) وكأنَّ الماركسيَّة بحث في

(20) لينين: في الثقافة والثورة الثقافيَّة، دون مترجم، دار التقدُّم، موسكو، د.ت، ص10.

(21) ماركس، كارل: مخطوطات (عام 1844)، ترجمة محمد مستجير مصطفى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1974م، ص16.

(22) ماركس، كارل: مخطوطات (عام 1844)، ص16.

(23) لينين: في الثقافة والثورة الثقافيَّة، ص11.

(24) بيار/ فافر، مونيك: الماركسيات بعد ماركس، ترجمة أنطوان نجيم، جونيه، 1981م، ص53.

الاشتراكيَّة، مع أنَّنا نستطيع أن نقول: إنَّ كلَّ ماركسيّ اشتراكيّ، لكنَّنا لا نستطيع أن نقول: إنَّ كلَّ اشتراكيّ ماركسيّ، وسنعمد إلى إلقاء الضوء بشكل أسطع على هذه الحقيقة عندما نتحدَّث عن الأزمات التي وقعت بها الماركسيَّة وعن المعاناة في التطبيق.

تطبيقات الماديّة الجدليَّة:

تمتاز الاشتراكيَّة الماركسيَّة بصيغتها الدوليَّة ودعوتها الطبقات العاملة في جميع بلاد العالم إلى النضال، إذ إنَّ وظيفة البرنامج الاشتراكيّ هي تهيئة العمَّال للانتقال من الصراع الاقتصاديّ إلى الصراع السياسيّ، وهذا ما عبَّر عنه لينين قائلاً: "إنَّ مهمَّة الحزب الاشتراكيّ الثوريّ الحقيقيَّة هي "**في تنظيم نضال البروليتاريا الطبقيّ وقيادة هذا النضال الذي هدفه النهائي هو ظفر البروليتاريا بالسلطة السياسيَّة وتنظيم المجتمع الاشتراكيّ**"[(25)].

وقد صادفت آراء ماركس نجاحاً كبيراً بادئ الأمر، بيد أنَّه تبيَّن لطائفة من الاشتراكيِّين فساد أهمِّ ما اشتملت عليه، وممَّن حمل لواء نقدها إدوارد برنشتين* (185- 1932م) فقد هاجم نظريَّة فائض القيمة والماديَّة التاريخيَّة، ورفض ما ذهب إليه ماركس من سيادة العوامل الاقتصاديَّة وتحكُّمها في التطوُّر الاجتماعيّ، وعارض تنبؤ ماركس بأنَّ الرأسماليَّة تمهِّد إلى الاشتراكيَّة، فقد "**أنكر نظريَّة النضال الطبقيّ الماركسيَّة، ومذهب حتميَّة انهيار الرأسماليَّة ومذهب الثورة الاشتراكيَّة وديكتاتوريَّة البروليتاريا، وأعلن أنَّ تحسين أوضاع العمَّال الاقتصاديَّة في ظلِّ الرأسماليَّة هو المهمَّة الوحيدة التي تواجه الحركة العمَّاليَّة**"[(26)].

وانتقد اشتراكيُّون آخرون ماركس نقداً عنيفاً في تقسيم المجتمع إلى طبقتين متصارعتين وإهمال دور الطبقات الاجتماعيَّة المتوسِّطة والمُثبِّطة للصراع والتناقض، ودعوا إلى التعاون مع غير الاشتراكيين إذا أظهروا نوايا حسنة في تحقيق الأهداف المنشودة. أمَّا الاشتراكيُّون الثوريُّون فقد آمنوا بفلسفة القوَّة، فقد وجدت الاشتراكيَّة الماركسيَّة الثوريَّة حقلاً خصباً في روسيا بسبب قساوة الحالة الاجتماعيَّة واستبداد القياصرة ممَّا جعل الشريحة الواسعة من الجماهير مُهيَّأة للقيام بالثورة.

فقد نجحت الثورة الشيوعيَّة في روسيا عام 1917م بقيادة لينين الذي كان المنظِّر الأكبر للماركسيَّة الماديَّة، والمُطبِّق لها في آنٍ معاً من خلال قيادته للحزب البلشفي، إلاَّ أنَّ هذا النجاح لم يُكتب له الاستمرار طويلاً، فما إن تُوفِّي لينين سنة 1924، حتى برز انقسام خطير في صفوف زعماء الحزب البلشفي وأصبحوا فريقين: فريق متطرِّف تزعَّمه ليون تروتسكي (1879- 1940م)، وفريق معتدل تزعَّمه جوزيف ستالين (1878- 1953م).

رأى تروتسكي ضرورة السير في التجربة الشيوعيَّة إلى أقصى مداها مهما بلغت التضحيات، فعلى الصعيد الخارجيّ أكَّد بأنَّه "**ليس لروسيا السوفياتيَّة اختيار إلاَّ بين التراجع الذي قد ينتج بالضرورة عن حصر الثورة ضمن حدودها وحدها وبين تحقيق الاشتراكيَّة العالميَّة بالثورة المستمرَّة**"[(27)]، أمَّا على الصعيد الداخليّ فقد نبَّه على أهميَّة طبقة الفلاَّحين التي لم تنتظم بعد في الحزب الشيوعيّ وبيَّن أنَّ هذه الطبقة يمكن أن تكون سلاحاً ذا حدّين؛ "**لأنَّ طبقة الفلاَّحين طبقة متحرِّكة بوسعها أن تخوض قتالاً رجعيَّاً مثل الفاشيَّة، كما يمكنها الخوض في قتال ثوريّ، ممَّا يفرض**

(25) لينين: المختارات، المجلَّد1، ترجمة الياس شاهين، دار التقدُّم، موسكو، 1978م، ص498.

*** ذكره لينين بشيء من التهكُّم واصفاً إياه بزعيم الجناح الانتهازيّ المتطرِّف في الاشتراكيَّة – الديمقراطيَّة الألمانيَّة في مؤلَّفاته. أنظر على سبيل المثال، لينين: المختارات، المجلَّد1، ص357، 483، 488.**

(26) لينين: المختارات: المجلَّد1، ص564.

(27) بيار/ فافر، مونيك: الماركسيَّات بعد ماركس، ص82.

على الطبقة العمَّاليَّة إذاً، بالإكراه إذا اقتضت الحاجة، أن تجعل طبقة الفلاَّحين تنقلب إلى الاشتراكيَّة ... إنَّ خلاف تروتسكي حاسم في هذا المجال مع السياسة الاقتصاديَّة الجديدة"[28].

أمّا ستالين فقد تبنَّى سياسةً مرنةً، حاول من خلالها استغلال الخلافات بين أنصار اليمين واليسار والوسط في الحزب الشيوعيّ، وذلك من أجل التخلُّص من تروتسكي المنافس الأقوى له على زعامة الحزب، فقد نبذ ستالين فكرة الثورة العالميَّة الشيوعيَّة التي دعا إليها تروتسكي، وأكَّد على أهميَّة الحفاظ على الاشتراكيَّة المحليَّة في جمهوريات الاتحاد السوفيتي، ولكي يحقِّق ذلك قام ببعض التحالفات مع بعض رفاقه من أنصار الحزب الشيوعيّ، انتهت بإدانة تروتسكي ونفيه خارج البلاد ومن ثمَّ اغتياله، ثمَّ تحوَّل ستالين بعد ذلك من رئيس لروسيا السوفيتيَّة إلى دكتاتور لأنَّه رأى أنَّ "**دكتاتوريَّة البروليتاريا ضروريَّة في روسيا مدة طويلة ... لقد أحدثت فيها الثورة تكثيفاً لصراع الطبقات، ممَّا يوجب على الحزب أكثر من أيِّ وقتٍ مضى أن يكون منضبطاً وكتلة واحدة لينتصر في هذا الصراع**"[29]، وهذا ما أدَّى إلى تأليه الحزب، ومن ثمَّ تأليه رئيسه الذي أضحى موضوع عبادة شخصيَّة.

خلاصة القول، فقد قامت البلشفيَّة على أساس أنَّ مصدر السيادة هي الطبقة العاملة في المدن والأرياف غير أنَّها تختلف عن الديمقراطيَّة، فهي تمزج بين الديمقراطيَّة السياسيَّة والديمقراطيَّة الاجتماعيَّة في أنَّها تجعل من الشعب (مُمثلاً في الطبقة العاملة) مصدر السيادة وصاحب الكلمة العليا. وقد ميَّز الدستور بين مختلف السلطات وأقرَّ مبدأ الفصل بينها على نحوٍ أدقّ وأقرب إلى الديمقراطيَّة، وسوّى بين جميع المواطنين ومنحهم قدْراً من الحرِّيات العامَّة غير أنَّه لم يمنحهم الحريَّة السياسيَّة، فقد حدَّ من حريَّة الكلام والكتابة والاجتماع، ممَّا أدَّى إلى الجمود الفكريّ والعقائديّ إلى درجة أضحى فيها قادة الحزب بمثابة أنبياء لامجال لمعارضتهم، فانقلبت الديمقراطيَّة المنشودة إلى بيروقراطيَّة بفعل تسلُّط هؤلاء القادة المُترفين، على حساب الجمّ الغفير من الجماهير التي أصبحت تعاني من الفقر شيئاً فشيئاً، مع تغلغل الفساد في مفاصل الدولة وإداراتها. وبتضافر هذا العامل الرئيسي مع عوامل أخرى لامجال لذكرها الآن كان نهاية أكبر دولة شيوعيَّة في العالم، إذ انهار الاتحاد السوفيتي في بداية التسعينيَّات من القرن الماضي، بيد أنَّه لا تزال بعض الدول تطبِّق الماركسيَّة بصيغٍ جديدة مُعدَّلة في مناطق مختلفة من العالم بحيث يمكن القول بأنَّ ثمَّة ماركسيَّات متعدِّدة وليس ماركسيَّة واحدة.

الخاتمة:

حاولنا من خلال هذا البحث تسليط الضوء على أهمِّ معالم الماديَّة الماركسيَّة، أصولها، مصادرها، تطبيقاتها، فتبيَّن لدينا أنَّ الفلسفة الماركسيَّة على الرغم من عبقريَّة مؤسِّسها، ماركس، فإنَّه لم يبتكرها من العدم، بل استقى أهمَّ مصادرها من الفلسفات السابقة عليه، ومن التطوُّرات التي حقَّقتها العلوم في عصره، وخاصَّة على صعيد الاقتصاد والسياسة والتاريخ، كما تبيَّن أنَّ الماركسيَّة لا تعني فقط اسم مؤسِّسها، ماركس فقط، بل هي تدل أيضاً على صديقه الوفيّ إنجلز الذي ساعده في تأسيسها، والذي كثيراً ما يُهمَّش اسمه عند الحديث عن الماركسيَّة، عن قصد أو غير قصد. لا بل يمكن القول بأنَّه لا يجوز الحديث عن الماركسيَّة بدون ذكر فضل كلٍّ من لينين وتروتسكي وستالين، الذين كان لهما الفضل الأكبر في نجاح أوَّل تطبيقٍ للماديَّة الماركسيَّة على أرض الواقع، على الرغم من انهيار الاتحاد السوفيتي في آواخر القرن الماضي. والأهمُّ من هذا كلِّه يمكن صياغته على النحو الآتي: لماذا تصيب الشيوعيِّين الدهشة والحيرة عند

---

(28) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(29) بيار/ فافر، مونيك: الماركسيَّات بعد ماركس، ص84.

البحث في أسباب سقوط أكبر دولة شيوعيَّة في العالم؟ فهل كانوا يعتقدون أنَّ التاريخ سينتهي عند هذه الدولة أو تلك؟ وهل من الممكن أن يتوقَّف الديالكتيك الماديّ بمجرَّد أنه حقَّق لبعض الدوغمائيين بعض الأماني؟!

لم يحاول البحث الإجابة عن تلك الأسئلة وأمثالها، بل هي أسئلة انبثقت من سياق البحث نفسه، وخاصَّة عند معالجة فقرة الماركسيَّة من خلال التطبيق، ونأمل في بحوث لاحقة محاولة الإجابة عن تلك الأسئلة، من قِبَل الباحث نفسه أو من قِبَلِ غيره من الباحثين.

المصادر والمراجع:

المصادر:

إنجلز، فريدريك: *الاشتراكيَّة الطوباويَّة والعلم*، دون مترجم، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م.

سيرّو، رينيه: هيغل والهيغليَّة، ترجمة نهاد رضا، دار الأنوار، بيروت، د. ت.

لينين: *المختارات*، المجلَّد1، ترجمة الياس شاهين، دار التقدُّم، موسكو، 1978م.

لينين: *دفاتر عن الديالكتيك*، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ط1، 1971م.

لينين: *في الثقافة والثورة الثقافيَّة*، دون مترجم، دار التقدُّم، موسكو، د. ت.

لينين: *ماهي سلطة السوفييت*؟ ترجمة الياس شاهين، دار التقدُّم، موسكو، 1973م.

ماركس، كارل/ انجلز، فريدريك: *الإيديولوجية الألمانية*، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق، ط1، 1976م.

ماركس، كارل: *رأس المال*، المجلد الأول، ترجمة فالح عبد الجبَّار، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م.

ماركس، كارل: *مخطوطات (عام 1844)*، ترجمة محمد مستجير مصطفى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1974م.

المراجع:

البلاوي، حازم: *دليل الرجل العادي إلى تاريخ الفكر الاقتصادي*، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1995م.

بيار/ فافر، مونيك: *الماركسيَّات بعد ماركس*، ترجمة أنطوان نجيم، جونيه، 1981م.

جماعة من الأساتذة السوفييت: *الماديَّة الديالكتيكيَّة*، ترجمة فؤاد مرعي، دار الجماهير، دمشق، ط4، 1978م.

كيللي. ف، كوفالزون. م: *الماديَّة التاريخيَّة*، ترجمة أحمد داود، دار الجماهير، دمشق، 1978م.

المعاجم:

References:

[1] Farha, Mohammad. *The critique of Realism east and west Vaishesika and Husserl*, university of Delhi, Delhi, 2005.

[2] Farha, Mohammad. Objectivity from a Phenomenological Point of View: An Analytical Study, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014.

[3] Farha, Mohammad. The Phenomenological Concept of Husserl's Theory of Intentionality, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (1) 2009.

[4] Farha, Mohammad. George Santyana's Materialism, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014.

[5] Farha, Mohammad. The Ontology: Origin, Development and Maturity, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (4) 2010.

[6] Farha, Mohammad, Batol, Mohammad. The Ontology: Origin, Development and Maturity, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (5) 2015.

[7] Farha, Mohammad, Batol, Mohammad. Inter subjectivity and It's Importance of Merleau-Ponty, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (3) 2017.

[8] Farha, Mohammad. *Metaphysics of presence with Husserl*, Tishreen university Journal for research and scientific studies, Arts and Humanities series vol 38, 2016.

[9] *غسان علاء الدين*، الرؤية التنويرية عند علي عبد الرازق الإسلام وأصول الحكم مثالاً. Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol 32, No 4 (2010)

[10] *غسان علاء الدين*، منهج التحليل عند برتراند رسل. Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol 40, No 5 (2018)

[11] *غسان علاء الدين*، منهج التحليل عند برتراند رسل. Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol 40, No 5 (2018)